بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

٦٤

الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيّ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ أَحَدُ سَادَاتِ قَبِيلَتِهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ. وَقَبِيلَةُ دَوْسٍ تُنْسَبُ إِلَى دَوْسِ بنِ عُدْثَانَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ زَهْرَانَ، وَهِيَ الَّتِي تُعْرَفُ اليَومَ بِاسْمِ «زَهْرَان»، وَلاَ تَزَالُ فِي مَوَاطِنِهَا الحَالِيَّةِ، جَنُوبِ الطَّائِفِ، شَمَالَ البَاحَةِ، شَرْقِ اللَّيْثِ، تُقِيمُ فِي جِبَالِ السَّرَوَاتِ، وَسُفُوحِهَا الغَرْبِيَّةِ، وَتُشَكِّلُ تِلْكَ السُّفُوحُ جُزْءاً مِنْ تِهَامَةَ، وَفِيْهَا كَانَتْ مَنَازِلُ قَوْمِ الطُّفَيْلِ بنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْ هُنَا تَحَدَّثَتْ كُتُبُ السِّيَرِ عَنْ خُرُوجِهِ مِنْ تِهَامَةَ إِلَى مَكَّةَ. رَغْمَ أَنَّ ذَلِكَ الخُرُوجِ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ الَّذِي هُوَ تِهَامَةُ «اصطلاحاً».

وَقَبِيلَةُ «دَوْس» أَوْ «زَهْرَانَ» قَبِيلَةٌ يَمَانِيَّةٌ تَعُودُ إِلَى الأَزْدِ، فَزَهْرَانُ هُوَ: زَهْرَانُ بنُ كَعْبِ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَالِكِ بنِ نَصْرِ بنِ الأَزْدِ، وَقَدِيماً كَانَ اسْمُ «اليَمَنِ» يُطْلَقُ عَلَى المَوَاطِنِ الَّتِي تَنْتَشِرُ فِيهَا تِلْكَ القَبَائِلُ الَّتِي تَعُودُ إِلَى أَصْلٍ يَمَنِيٍّ، وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ نِسْبَةُ الطُّفَيْلِ وَنِسْبَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَى اليَمَنِ فَكِلاَهُمَا مِنْ دَوْسٍ.

كَانَ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَرِيماً شَهْمَاً، يُطْعِمُ الجَائِعَ، وَيَأْوِي إِلَيْهِ الخَائِفُ، وَيَتَّجِهُ نَحْوَهُ مَنْ يَطْلُبُ الاسْتِجَارَةَ، فَيُجِيرُهُ، لِذَا اشْتَهَرَ بَيْنَ العَرَبِ، وَعُرِفَ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ المُرُوءَاتِ، وَعُدَّ مِنْ رِجَالاتِهَا. وَفَوْقَ ذَلِكَ كَانَ شَاعِراً، مُرْهَفَ الحِسِّ، حُلْوَ البَيَانِ، حَسَنَ الاسْتِمَاعِ، تُؤَثِّرُ فِيْهِ الكَلِمَةُ تَأْثِيراً كَبِيراً.

عَرَفَتْ قُرَيْشٌ مَكَانَةَ الطُّفَيْلِ فِي قَوْمِهِ، وَعَرَفَتْ مَنْزِلَتَهُ بَيْنَ العَرَبِ، وَقَدَّرَتْ مَا يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتٍ تُؤَهِّلُهُ لِلزِّعَامَةِ وَتُحِلُّهُ مَحَلَّ السِّيَادَةِ، فَكَانَتْ تُكْرِمُهُ إِنْ نَزَلَ فِي دِيَارِهَا، وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ ضَيْفَاً مَنْ يَمُرُّ مِنْ سَادَاتِهَا عَلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ فِي تِجَارَتِهِمْ إِلَى اليَمَنِ أَوْ فِي رِحْلاَتِهِمْ بَيْنَ القَبَائِلِ، وَغَالِبَاً مَا يَجْمَعُ مَوْسِمُ الحَجِّ، أَوْ أَسْوَاقُ العَرَبِ بَيْنَ سَادَةِ قُرَيْشٍ، وَالطُّفَيْلِ بنِ عَمْروٍ أَحَدِ سَادَةِ دَوْسٍ.

أَشِعَّةُ النُّورِ:

بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، فِي مَكَّةَ، وَأَخَذَتْ أَشِعَّةُ النُّورِ تَسْرِي إِلَى قُلُوبِ كَثِيرِينَ مِنْ أَصْحَابِ العُقُولِ النَّيِّرَةِ، وَبَدَأَتْ دَعْوَةُ الحَقِّ تَصِلُّ إِلَى الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الإِيمَانِ. وَصَعُبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ أَنْ يَتَنَازَلُوا عَنْ بَاطِلِهِمُ الَّذِي اعْتَادُوا عَلَيْهِ

فِي الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي مَنَحَتْهُمْ التَّحَكُّمَ بِالضُّعَفَاءِ مِنَ المَوَالِي وَالأَرِقَّاءِ، وَالجَوَارِي وَالإِمَاءِ، وَالمَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ، وَالأَرَامِلِ مِنَ النِّسَاءِ.

كَمَا هَالَهُمْ تَرْكُ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ لَهْوٍ، وَخَمْرٍ، وَقِمَارٍ، وَأَكْلِ الأَمْوَالِ بِالبَاطِلِ، وَتَعَاطِي الرِّبَا، وَإِرْثِ نِسَاءِ الأَبِ، وَالغَطْرَسَةِ، وَالتَّفَاخُرِ بِالأَنْسَابِ لِذَا وَقَفُوا فِي وَجْهِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، وَقَاوَمُوهَا أَشَدَّ المُقَاوَمَةِ بِحُجَّةِ مُخَالَفَتِهَا لِمَا اعْتَادُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَالتَّمَايُزِ حَسَبَ الأَمْوَالِ، وَالأَوْلَادِ، وَالعَبِيدِ، وَالأَحْسَابِ، وَجَعَلُوا هَذَا شِعَاراً لَهُمْ لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الحَقِّ، وَسَتَرُوا تَحْتَهُ كُلَّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ سُوءٍ، وَمَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ مُحَرَّمَاتٍ، وَمَا يُقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ فُحْشٍ وَظُلْمٍ، وَهَذَا مَا احْتَجَّتْ بِهِ أَقْوَامُ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، فَقَوْمُ هُودٍ قَالُوا: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ ﴾[1]. وَقَالَ قَوْمُ صَالِحٍ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢ ﴾[2]. وَقَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ ﴾[3]. مَعَ أَنَّ هَذَا الشِّعَارَ،

---

(١) سورة هود ٥٣.

(٢) سورة هود ٦٢.

(٣) سورة هود ٨٧.

وَهُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَقْلٍ قَاصِرٍ، وَتَفْكِيرٍ مُتَدَنٍّ لَمْ تَهْبِطْ إِلَيْهِ أَدْنَى المُسْتَوَيَاتِ البَشَرِيَّةِ فِي تَارِيخِهَا كُلِّهِ، فَأَيُّ تَفْكِيرٍ يَقْبَلُ أَنْ يَنْحَتَ المَرْءُ حَجَراً بِيَدِهِ، وَيَجْعَلَهُ إِلَهاً يَعْبُدُهُ، يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَيَدْعُوهُ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ أَصَمٌّ أَبْكَمُ، لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرّاً وَلاَ نَفْعاً.

وَقَفَ طُغَاةُ قُرَيْشٍ فِي وَجْهِ دَعْوَةِ الحَقِّ، وَكَانَ الصِّرَاعُ، فَالطُّغَاةُ يُدَافِعُونَ عَنْ أَصْنَامِهِمْ، وَيُنَافِحُونَ عَنِ العَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي وَرِثُوهَا، وَالَّتِي تُبْقِي لَهُمُ السِّيَادَةَ، وَتُحَقِّقُ لَهُمُ الشَّهْوَةَ، وَتُؤَمِّنُ لَهُمُ الغَطْرَسَةَ وَالكِبْرِيَاءَ فِي الأَرْضِ. أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، فَكَانَ يَرْسُمُ لَهُمُ الطَّرِيقَ السَّوِيَّ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الحَقَّ، وَيُنِيرُ لَهُمُ السَّبِيلَ، وَيُوَضِّحُ لَهُمُ العَدَالَةَ، فَتَفَتَّحَتْ قُلُوبٌ لِلْخَيْرِ، فَاسْتَجَابَتْ لِدَعْوَةِ اللَّهِ، وَقَبِلَتِ الحَقَّ، وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَسَرَى ذَلِكَ الإِيمَانُ فِيهَا، وَأَخَذَتْ ذَلِكَ بِقُوَّةٍ، وَتَحَمَّلَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَضَحَّتْ بِأَمْوَالِهَا وَأَنْفُسِهَا. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ. وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ اسْتَغْلَقَتْ قُلُوبٌ أَمَامَ نُورِ الحَقِّ، وَحَجَبَتْ نَفْسَهَا عَنْهُ بِأَغْلِفَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الظَّلاَمِ حَتَّى لاَ يَصِلَ إِلَيْهَا أَيُّ بَصِيصٍ مِنْ أَشِعَّةِ نُورِ

الإِيمَانِ رَغْمَ أَنَّهَا مُبْهِرَةٌ، وَذَلِكَ كَيْ تَبْقَى فِي جَاهِلِيَّتِهَا تَتَمَرَّغُ فِي أَوْحَالِهَا، هَكَذَا أَرَادَتْ لِنَفْسِهَا الضَّلاَلَ فَبَقِيَتْ فِي ظَلاَمٍ قَاتِمٍ، وَأَضَلَّهَا اللَّهُ حَيْثُ اسْتَحَبَّتْ الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ، وَرَغِبَتْ فِي الظُّلُمَاتِ، وَكَرِهَتِ النُّورَ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أَرَادَ الطُّغَاةُ حَجْبَ النُّورِ عَنِ الآخَرِينَ، كَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ حَسْبَ مَصَالِحِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ بِالتَّحَكُّمِ فِي الآخَرِينَ، وَخَشُوا أَنْ يَصِلَ النُّورُ إِلَى خَارِجِ مَكَّةَ، فَعَمِلُوا عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِيَادَةً فِي الكُفْرِ وَإِمْعَاناً فِي الضَّلاَلِ، فَحَالُوا دُونَ أَنْ يَلْتَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، مَعَ أَحَدٍ خَارِجَ قُرَيْشٍ، مِنَ القَبَائِلِ الَّتِي تَرِدُ إِلَى مَكَّةَ وَخَاصَّةً فِي المَوْسِمِ، فَعَمِلُوا عَلَى الاتِّصَالِ بِكُلِّ فَرْدٍ يَأْتِي إِلَى مَكَّةَ مِنْ خَارِجِهَا أَوْ كُلِّ جَمَاعَةٍ تَفِدُ إِلَيْهَا، وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنَ الالتِقَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، أَوِ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، حَيْثُ يَتَّهِمُونَهُ بِالسِّحْرِ، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَالأَخِ وَأَخِيهِ، وَالأَبِ وَبَنِيهِ، وَأَنَّهُ شَاعِرٌ يُجِيدُ الكَلاَمَ، وَيُؤَثِّرُ عَلَى مُسْتَمِعِيهِ، بَلْ كَانَ عَمُّهُ عَبْدُ العُزَّى (أَبُو لَهَب) هُوَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِهَذِهِ الفِرْيَةِ فَيَظُنُّ القَادِمُونَ إِلَى مَكَّةَ أَنَّ هَذَا رُبَّمَا كَانَ صَحِيحاً، فَعَمُّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَخْبَرُهُمْ بِأَمْرِ ابنِ أَخِيهِ، فَيَمْتَثِلُ لِأَمْرِ طُغَاةِ قُرَيْشٍ، فَيَرْفُضُ الاجْتِمَاعَ بِسَيِّدِ الأَنَامِ، وَيَأْبَى الاسْتِمَاعَ، وَمَنْ

يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرَاً يُهَيِّىءْ لَهُ أَسْبَابِ الالتِقَاءِ، وَيَشْرَحْ صَدْرَهُ للاسْتِمَاعِ، وَغَالِبَاً مَا يَسْرِي النُّورُ فِي قَلْبِهِ، وَتَتَوَقَّدُ شُعْلَةُ الإِيمَانِ فِيْهِ، وَيُصْبِحُ ضِمْنَ رَكْبِ مَوْكِبِ الحَقِّ.

إِسْلاَمُ الطُّفَيْلِ:

قَدِمَ الطُّفَيْلُ مَكَّةَ، وَهُوَ لاَ يَدْرِي مَاذَا يَجْرِي عَلَى سَاحَتِهَا مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، وَمَعَهُ الفِئَةُ المُؤْمِنَةُ الأُولَى، وَسِلاَحُهُمُ الإِيمَانُ، وَمَعْنَوِيَاتُهُمُ النَّصْرُ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَبَيْنَ طُغَاةِ قُرَيْشٍ وَسِلاَحُهُمُ السِّيَادَةُ، وَالقُوَّةُ، وَالغَطْرَسَةُ، وَالمَالُ، وَالسِّلاَحُ، وَالأَتْبَاعُ الَّذِينَ يَسِيرُونَ وَرَاءَ القُوَّةِ، وَمَعَ المَالِ، وَخَلْفَ الشَّهْوَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ. وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَيَرَى مَا يَجْرِي، وَمَا يُعَانِيهِ عِبَادُهُ المُؤْمِنُونَ مِنْ ظُلْمِ الطُّغَاةِ.

وَمَا أَنْ وَصَلَ الطُّفَيْلُ إِلَى مَشَارِفِ مَكَّةَ حَتَّى تَلَقَّاهُ بَعْضُ طُغَاتِهَا فَقَالُوا لَهُ: يَا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلاَدَنَا وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، إِنَّمَا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مِثْلَ مَا دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْهُ، فَلاَ تُكَلِّمْهُ، وَلاَ تَسْمَعْ مِنْهُ. قَالَ الطُّفَيْلُ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجْمَعْتُ أَلاَّ أَسْمَعَ مِنْهُ وَلاَ

أُكَلِّمَهُ، فَغَدَوْتُ إِلَى المَسْجِدِ وَقَدْ حَشَوْتُ أُذُنَيَّ كُرْسُفَاً، يَعْنِي قُطْنَاً، فَرَقَاً مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، حَتَّى كَانَ يُقَالُ لِي ذُو القُطْنَتَيْنِ، قَالَ: فَغَدَوْتُ يَوْمَاً إِلَى المَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَقُمْتُ قَرِيبَاً مِنْهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ، فَسَمِعْتُ كَلاَمَاً حَسَنَاً، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاثُكْلَ أُمِّي، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ، مَا يَخْفَى عَلَيَّ الحَسَنُ مِنَ القَبِيحِ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ؟ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنَاً قَبِلْتُهُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحَاً تَرَكْتُهُ. فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ مَعَهُ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا لِلَّذِي قَالُوا لِي، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكُونِي يُخَوِّفُونِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِكُرْسُفٍ لِئَلا أَسْمَعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَبَى إِلاَّ أَنْ يُسْمِعَنِيهِ فَسَمِعْتُ قَوْلاً حَسَنَاً، فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ. فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، الإِسْلاَمَ، وَتَلاَ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فَقَالَ: لاَ وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، وَلاَ أَمْرَاً أَعْدَلَ مِنْهُ. فَأَسْلَمْتُ، وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الحَقِّ. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَأَنَا رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ فَدَاعِيهِمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ لِي عَوْنَاً عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ

اجْعَلْ لَهُ آيَةً. قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَى قَوْمِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَّةٍ تُطْلِعُنِي عَلَى الحَاضِرِ وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيَّ مِثْلَ المِصْبَاحِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ فِي غَيْرِ وَجْهِي فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِ دِينِهِمْ. فَتَحَوَّلَ النُّورُ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي، فَجَعَلَ الحَاضِرُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النُّورَ فِي سَوْطِي كَالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ.

وَبِهَذَا يَكُونُ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ أَعْطَى مِثَالاً لِلْمُسْلِم فِي أَنْ لاَ يُصَدِّقَ كُلَّ مَا يُقَالُ، وَمَا يُبَثُّ مِنْ شَائِعَاتٍ، وَمَا يُحَاكُ مِنْ أَبَاطِيلَ وَلَوْ كَانَ مِنَ السَّادَةِ وَالمَسْؤُولِينَ حَيْثُ لَهُمْ مَصَالِحُ، وَلَهُمْ تَوَجُّهَاتُ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ فِكْرَهُ، وَيَتَّبِعَ الحقَّ، وَلَوْ حَارَبَهُ السَّادَةُ. فَالطُّفَيْلُ تَرَكَ مَا قَالَهُ سَادَةُ قُرَيْشٍ، وَأَوْصَلَهُ تَفْكِيرُهُ إِلَى الهُدَى الَّذِي أَخْرَجَهُ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي ظُلُمَاتٍ هُوَ وَطُغَاةُ قُرَيْشٍ.

الطُّفَيْلُ الدَّاعِيَةُ:

يَقُولُ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُتَابِعاً حَدِيثَهُ: وَلَمَّا دَخَلْتُ بَيْتِيَ أَتَانِي أَبِي فَقُلْتُ لَهُ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَتَاهُ فَلَسْتَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْكَ، قَالَ: وَلِمَ يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: إِنِّي أَسْلَمْتُ، وَاتَّبَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: يَا بُنَيَّ دِينِي دِينُكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: فَاذْهَبْ وَاغْتَسِلْ، وَطَهِّرْ ثِيَابَكَ، ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الإِسْلاَمَ فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي، فَقُلْتُ لَهَا: إِلَيْكِ عَنِّي، فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتِ مِنِّي، قَالَتْ: وَلِمَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قُلْتُ: فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ الإِسْلَامُ، إِنِّي أَسْلَمْتُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ، قَالَتْ: فَدِينِي دِينُكَ، قُلْتُ: فَاذْهَبِي إِلَى حِسِيْ ذِي الشَّرَى فَتَطَهَّرِي مِنْهُ. وَكَانَ ذُو الشَّرَى صَنَمُ دَوْسٍ، والحِسْيُ حِمَىً لَهُ يَحْمُونَهُ، وَبِهِ وَشَلٌ مِنْ مَاءٍ يَهْبِطُ مِنَ الجَبَلِ. فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ أَتَخَافُ عَلَى الصَّبِيَّةِ مِنْ ذِي الشَّرَى شَيْئاً؟ قُلْتُ: لَا، أَنَا ضَامِنٌ لِمَا أَصَابَكِ. قَالَ: فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ، ثُمَّ جَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ. ثُمَّ دَعَوْتُ دَوْساً إِلَى الإِسْلَام فَأَبْطَأُوا عَلَيَّ. ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، بِمَكَّةَ، وَمَعِي أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَلَبَتْنِي دَوْسٌ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: اللَّهُم اهْدِ دَوْساً، وَأْتِ بِهَا. وَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ: اخْرُجْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ وَارْفِقْ بِهِمْ. فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهَا حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، إِلَى المَدِينَةِ، وَمَضَى بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، وَالخَنْدَقُ.

الطُّفَيْلُ المُهَاجِرُ:

وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ يَرْتَحِلُ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَسْلَمَ مَعَهُ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ، وَرَسُولِهِ، وَكَانَ مَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ،

رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، فَيَقُـولُ الطُّفَيْـلُ: ثُـمَّ قَـدِمْـتُ عَلَـى رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، بِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِي، وَرَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، بِخَيْبَرَ حَتَّى نَزَلْتُ المَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتاً مِنْ دَوْسٍ، ثُمَّ لَحِقْنَا رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، بِخَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ المُسْلِمِينَ، وَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْنَا مَيْمَنَتَكَ، وَاجْعَلْ شِعَارَنَا مَبْرُوراً، فَفَعَلَ، فَشِعَارُ الأُزْدِ كُلِّهَا إِلَى اليَوْمِ مَبْرُورٌ. قَالَ الطُّفَيْلُ: ثُمَّ لَمْ أَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْعَثْنِي إِلَى ذِي الكَفَّيْنِ صَنَم عَمْرِو بنِ حُمَمَةَ حَتَّى أَحْرِقَهُ. فَبَعَثَهُ إِلَيْهِ، فَأَحْرَقَهُ. وَجَعَلَ الطُّفَيْلُ يَقُولُ، وَهُوَ يُوقِدُ النَّارَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مِنَ الخَشَبِ:

يَا ذَا الكَفَّيْنِ لَسْتُ مِنْ عِبَادِكَ   مِيلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِكَ
أَنَـا حَشَشْتُ النَّارَ فِي فُـؤَادِكَ

قَالَ الطُّفَيْلُ: فَلَمَّا أَحْرَقْتُ ذَا الكَفَّيْنِ بَانَ لِمَنْ بَقِيَ مُتَمَسِّكاً بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ فَأَسْلَمُوا جَمِيعاً. وَرَجَعَ الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، فَكَانَ مَعَهُ بِالمَدِينَةِ حَتَّى قُبِضَ.

الطُّفَيْلُ المُجَاهِدُ:

مُنْذُ أَنْ وَصَلَ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً

مَعَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، وَوَجَدَ المُسْلِمِينَ قَدْ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَوِجْهَتُهُمْ خَيْبَرُ، فَسَارَ بِمَنْ مَعَهُ وَرَاءَهُمْ، وَمَا أَنْ وَصَلَ إِلَى خَيْبَرَ حَتَّى كَانَ فَتْحُهَا قَدِ انْتَهَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَدْ قَسَمَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، مِنَ الغَنَائِمِ حَيْثُ عَدُّوهُمْ ضِمْنَ المُجَاهِدِينَ، فَإِنَّهُمْ مَا خَرَجُوا إِلَّا بِقَصْدِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَأَقَامَ الطُّفَيْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ، مَا يَسِيرُ إِلَى غَزْوَةٍ إِلَّا سَارَ مَعَهُ، وَمَا تَنْطَلِقُ سَرِيَّةٌ إِلَّا وَهُوَ فِي عِدَادِ أَفْرَادِهَا. وَاسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبَايَعَ المُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ خَلِيفَةً لَهُمْ، وَبَايَعَ الطُّفَيْلُ. وَارْتَدَّتْ بَعْضُ العَرَبِ عَنِ الإِسْلَامِ، وَجَنَّدَ الصِّدِّيقُ الجُيُوشَ لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ، فَوَضَعَ الطُّفَيْلُ نَفْسَهُ ضِمْنَ مُقَاتِلِي المُرْتَدِّينَ، وَكَانَ تَحْتَ لِوَاءِ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَاتَلُوا بَنِي أَسَدٍ فِي «البُزَاخَةِ»، ثُمَّ اتَّجَهُوا بِأَمْرِ الخَلِيفَةِ إِلَى بَنِي يُرْبُوعَ مِنْ تَمِيمٍ فِي «البِطَاحِ»، وَكَانَ عَلَيْهِمْ مَالِكُ بنُ نُوَيْرَةَ، وَالخِلَافُ فِي بَنِي تَمِيمٍ عَلَى أَشُدِّهِ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ سَجَاحُ مِنَ الجَزِيرَةِ بِبَنِي تَغْلِبٍ، وَهِيَ يُرْبُوعِيَّةٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَدَخَلَتْ بِلَادَهُمْ، فَوَادَعَهَا

مَنْ وَادَعَهَا، وَفَرَّ مِنْ وَجْهِهَا مَنْ فَرَّ. وَسَارَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اليَمَامَةِ فَخَافَهَا مُسَيْلَمَةُ فَاسْتَأْمَنَهَا فَأَمَّنَتْهُ، وَتَزَوَّجَهَا، وَبَقِيَتْ عِنْدَهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى أَرْضِ قَوْمِهَا. وَكَانَتْ قَدْ تَنَبَّأَتْ مِثْلَ مُسَيْلَمَةَ، وَسَارَ مَعَهَا عَدَدٌ مِنْ وُجَهَاءِ بَنِي تَمِيمٍ، وَكَانَتْ قَدْ صَالَحَتْ مُسَيْلَمَةَ عَلَى نِصْفِ غَلاَّتِ اليَمَامَةِ... وَعِنْدَمَا عَادَتْ إِلَى الجَزِيرَةِ وَجَاءَ المُسْلِمُونَ فَاتِحِينَ أَسْلَمَتْ، وَحَسُنَ إِسْلاَمُهَا.

وَعِنْدَمَا عَادَتْ سَجَاحُ إِلَى الجَزِيرَةِ تَحَيَّرَ بَنُو تَمِيمٍ الَّذِينَ وَادَعُوهَا، وَنَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَلْبَثُوا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ جُيُوشُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، وَبَيْنَهُمْ الطُّفَيْلُ، فَنَالَ المُخَالِفُونَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عِقَابَهُمْ، وَسَارَ خَالِدُ وَمَنْ مَعَهُ بَعْدَئِذٍ إِلَى اليَمَامَةِ. وَفِي الطَّرِيقِ رَأَى الطُّفَيْلُ رُؤْيَا، يَقُولُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ خَرَجْتُ بِبَعْثِ مَسَيْلَمَةَ، وَمَعِي ابْنِي عَمْرُو، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ رَأَيْتُ رُؤْيَا، رَأَيْتُ كَأَنَّ رَأْسِي حُلِقَ، وَخَرَجَ مِنْ فَمِي طَائِرٌ، وَكَأَنَّ امْرَأَةً أَدْخَلَتْنِي فِي فَرْجِهَا، وَكَأَنَّ ابْنِي يَطْلُبُنِي طَلَباً حَثِيثاً، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَحَدَّثْتُ بِهَا قَوْمِي، فَقَالُوا: خَيْراً. أَمَّا أَنَا فَقَدْ أَوَّلْتُهَا: أَمَّا حَلْقُ رَأْسِي فَقَطْعُهُ، وَأَمَّا الطَّائِرُ فَرُوحِي، وَالمَرْأَةُ الأَرْضُ أُدْفَنُ فِيهَا، فَقَدْ رُوِّعْتُ أَنْ أُقْتَلَ شَهِيداً، وَأَمَّا طَلَبُ ابْنِي إِيَّايَ، فَمَا أَرَاهُ إِلاَّ سَيُعْذَرُ فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ، وَلاَ

أَرَاهُ يَلْحَقُ فِي سَفَرِهِ هَذَا.

وَالْتَقَى المُسْلِمُونَ بِمُسَيْلَمَةَ وَأَتْبَاعِهِ فِي عَقْرَبَاءَ (الجُبَيْلَة) قُرْبَ حَدِيقَةِ المَوْتِ، وَوَقَعَ قِتَالٌ عَنِيفٌ، أَبْلَى فِيهِ الطُّفَيْلُ بَلاَءً حَسَناً، ثُمَّ سَقَطَ شَهِيداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا ابْنُهُ عَمْرُو فَقَاتَلَ أَيْضاً بِشَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ، وَأُصِيبَ بِعِدَّةِ جِرَاحَاتٍ، وَقُطِعَتْ كَفُّهُ اليُمْنَى، وَلَكِنْ لَمْ يَحْظَ بِالشَّهَادَةِ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ، وَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ، وَاسْتَبَلَّتْ يَدُهُ وَصَحَّتْ.

وَكَانَ عَمْرُو بنُ الطُّفَيْلِ عِنْدَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَيَّامَ خِلاَفَةِ الصِّدِّيقِ، إِذْ أُتِيَ بِطَعَامٍ فَتَنَحَّى عَنْهُ عَمْرُو، فَقَالَ عُمَرُ: مَا لَكَ لَعَلَّكَ تَنَحَّيْتَ لِمَكَانِ يَدِكَ؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَذُوقُهُ حَتَّى تَسُوطَهُ بِيَدِكَ، فَوَاللَّهِ مَا فِي القَوْمِ أَحَدٌ بَعْضُهُ فِي الجَنَّةِ غَيْرُكَ.

وَمَا أَنِ انْتَهَتْ حُرُوبُ الرِّدَةِ حَتَّى دَعَا الصِّدِّيقُ المُسْلِمِينَ لِلتَّعْبِئَةِ فِي الجُيُوشِ الَّتِي سَتَسِيرُ لِقِتَالِ الفُرْسِ وَالرُّومِ الَّذِينَ كَانُوا يُؤَيِّدُونَ حَرَكَةَ الرِّدَةِ، وَيَدْعَمُونَهَا، وَانْضَمَّ عَمْرُوُ بنُ الطُّفَيْلِ إِلَى المُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَتَّجِهُونَ إِلَى الشَّامِ، وَاشْتَرَكَ فِي مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكَ، وَأَبْلَى فِيهَا البَلاَءَ الحَسَنَ، وَنَالَ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ. وَيُعَدُّ عَمْرُو بنُ الطُّفَيْلِ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمَا، صَحَابِيّاً، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ جَدُّهُ عَمْرُو وَالِدُ الطُّفَيْلِ صَحَابِيّاً، وَلَكِنْ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.